النّص الأدبي الإلكتروني وعلاقته بنظرية التلقي

أ.بوقرومة حكيمة
جامعة المسيلة

لقد شغل تحليل النّص حيزا كبيرا من البحث المنهجي المعاصر، وبدت المناقلة المنهجية بأصولها المعرفية المتباينة وركائزها الإجرائية سمة تميز النقد المعاصر، خاصة نقد القرن العشرين، فأظهرت المناهج الحديثة سعيا كبيرا إلى وضع نظام منطقي محكم يتسلح بالعلوم اللسانية والمنطقية التي تقاربه مقاربة شاملة.

ومن هنا بدت المناهج في حركتها حول النصوص، وكأنّما يستدرك بعضها بعضًا في حركة مستمرة، فقد أمعنت المناهج السياقية النظر في خارج النص، بينما جاءت المناهج الداخلية لتصححه في مقاربة للنص تقصي الخارج بما في ذلك المؤلف ومتلقي النص، ومن ثم حدثت المناقلة الأوسع التي غاصت في بنية الأدب بذاتية المتلقي، فأصبحت دائرة العمل الفني تشع من خلاله ليرسم مقاربة جديدة في الخريطة النقدية الحديثة، ليبدأ علاقة تحاور مع النّص، ولعلّ نظرية التلقي هي «الرهان المعرفي الذي راهنت حركة العصر المعرفية عليه، فهي مجلى للأبعاد الثلاثة (المؤلف، النّص، القارئ) تصهرها جميعا في آلية القراءة الحديثة» [1].

اهتمت اتجاهات ما بعد البنيوية بالمتلقي، فحاولت تصحيح الأخطاء التي وقعت فيها البنيوية، التي من أبرزها الضمنية النصية، وموت المؤلف، وإهمال حركة التاريخ، فجاءت كرد فعل حاد على الانغلاق النصي[2]، وقد تمثلت هذه الاتجاهات في أربع نظريات مهمة هي: القراءة والتلقي، التفكيك، التأويل، والسيميولوجيا[3] وكلها

لها دور كبير في الخروج إلى فضاء جديد للمقاربة النقدية المعاصرة، وهي تنظر إلى النص على أنه مستوى يفيد القراءة، ولا يختزل دور القارئ في الكشف عنه، مما أحدث تطورا في النظرية الحديثة.

إنّ الاهتمام بالقراءة والقارئ قد شغل بال الكثير من الدّراسات المبكرة كنقد استجابة القارئ ودراسات الاتجاه البنيوي الذي يهتم بعملية القراءة خاصة "تودوروف" و"رولان بارت"، ودراسات السيميولوجيين ولاسيما "أمبرتو إيكو"، ولن يقف البحث إلاّ على النظرية التي جعلت فعل التلقي محورًا لمفاهيمها النظرية والإجرائية من بين اتجاهات ما بعد البنيوية، وهي (نظرية التلقي) التي فسحت المجال أمام الذات المتلقية لتدخل إلى فضاء النّص، لإعادة الاعتبار إلى القارئ الذي يعدّ من أبرز عناصر الإرسال أو التخاطب الأدبي.

إنّ ما يهمنا هنا هو كيفية دخول المتلقي إلى الفضاء النصي الذي لم يعد في عصر التكنولوجيا مقتصرا على الجاهز من المطبوع، بل على القارئ أن يتوغل بنفسه للبحث عن هذه النصوص، ويتعلق ذلك بالوسائل الحديثة ومدى استفادة الأدب من المعطيات التكنولوجيا وثورة المعلومات المعاصرة وانعكاس ذلك على عملية التلقي، على غرار ما حصل من تفاعل ونماذج بين النظريات الأدبية والنقدية سابقا والعلوم والنظريات الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة وغيرها.

تعتبر هذه الدراسة كمحاولة للرد على أولئك الذين يرون أنه لا علاقة بين الأدب والتطور التكنولوجي، نظرا لاختلاف طبيعة كلّ منهما، فالأدب في ضوء التطور التكنولوجي الكبير وظهور شبكة الإنترنت، استطاع أن يستفيد من هذا التطور وأن يتأثر به تأثرا بالغا، لكونه لصيقا باليومي وغير منفصل عنه.

إنّ الأمر لا يتوقف على الأدب فحسب، بل على عملية تلقيه وعلى عناصر العملية الإبداعية، فما هي العلاقة القائمة بين فنية الأدب وعملية التكنولوجيا؟

إنّ التفاعل بين الأدب والتكنولوجيا ينتقل من الورقية إلى الإلكترونية، فالنص بدأ مع مرحلة الشفاهية، ثم انتقل إلى مرحلة الكتابة وحاليا المرحلة الإلكترونية،

التي شكلت انتقالا في حياة النص الأدبي من عهد إلى عهد، وهذا يعدّ طفرة كبيرة لها الأثر البالغ الذي يتجاوز نوع النصوص إلى طبيعتها، ومن هنا أصبح جهاز الكمبيوتر وسيطا بين المبدع والمتلقي، وكما استفاد المبدع من التقنيات الحديثة في تقديم نصوصه، كذلك استفاد المتلقي من هذه التقنيات في تلقي تلك النصوص، كالاستعانة بالصوت والصورة المتاحة له للتنقل عبر فضاء النّص.

إنّ هذه النصوص تحظى بتنّوع الجمهور وعالميته، وتنفتح على جميع الوسائط المتاحة، بحيث تتحول إلى عالم مسرحي متحوّل ومفتوح على كلّ الاحتمالات، محررة لغتها من قيود الزمان والمكان وقيود المادّة، وإذا كان المبدع سابقا يحتاج إلى مجموعة من الوسائط للوصول إلى جمهوره، فإنّ المبدع الإلكتروني لم يعد محتاجا إلى ذلك، بحيث أصبح مبدعا متعددًا من خلال ما وفره الأدب التفاعلي من إمكانية لكل شخص أن يختار المسار الذي يناسبه لإكمال النص.

وقد ترتب على هذا التطور تطور آخر على مستوى التلقي الذي انتقل من المتلقي الورقي إلى المتلقي الإلكتروني، بحيث نجمت عنه تغيرات تتمثل في تعددية الخيارات المتاحة أمام المتلقي الإلكتروني، إضافة إلى الوقت الذي أصبح ملكا لذلك المتلقي، فإذا كان النص الورقي منتهيا عند صدوره في كتاب، فإنّ النّص الإلكتروني قابل للتعديل سواء من قبل المبدع أو المتلقي، لكون هذا النص يتميز بالرحابة والاتساع، وهو نص قابل للتغيير مع كلّ قراءة، وبالتالي فهو نص غير مكتمل.

كما أنّ الفراغات الموجودة في النص الإلكتروني تكون مصحوبة بدعوات إعلانية للقارئ من قبل مبدعه لكي يحاول إكْمَالَهُ وفق ما يراه مناسبا، وقد اقتضى ذلك من المتلقي أن يكون واعيا بدوره، وعدم استسلامه لما هو موجود في النص، لجعله يكون أكثر مشاركة في العملية الإبداعية.

فالنّص حسب "أيزر" ينطوي على عدد من الفجوات تستدعي قيام المتلقي بعدد من الإجراءات، لكي يكون المعنى في وضع يحقق الغايات القصوى للإنتاج، وهذا يعني أنّ النّص في رأيه يتضمن حتمية تشكل ركنا أساسيا من وجوده، تتمثل فيما

يعرف عند "أيزر" بالقارئ الضمني[4]، وهذا له علاقة بتلك الدعوات الإعلانية التي يبثها المبدع الإلكتروني، ليكمل المتلقي الفراغ، كما أن هذا النوع من المتلقين له علاقة بالقارئ الضمني الذي أشار إليه "أيزر"، فكلاهما يبذل جهدا لملأ الفجوات المتروكة في النص، لجعل المتلقي مشاركا في بناء المعنى.

يذهب "سعيد يقطين" إلى أنّ زمن المطبعة والكتابة على الورق ذاهب إلى الأفول، نظرا للإمكانيات المدهشة التي يقدّمها الحاسوب لهذا النص من جهة العلاقة ما بين مبدع يقدّم نصا جديدا ومختلفا يتخطى ثلاثية: الكاتب – النص – المتلقي، التقليدية نحو رباعية: المبدع – النّص المترابط – الحاسوب – المتلقي، فالمتلقي سيتفاعل مع هذا النّص باعتباره أحد أطراف العملية الإبداعية من جهة، ومنتجا ثانيا للنص من جهة أخرى، وهذا لا يعني أنّ «الحاسوب كآلة للكتابة يتّسع لممارسات أخرى تؤثر في النص وفي مجمل العملية الإبداعية، فتدفع بها نحو فضاء من التفكير والبحث والفن والأدب والنظرية الأدبية »[5]، وهذا يعني أن نكون أمام رؤية وممارسة جديدتين للثقافة والفكر.

كما أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّه ما كان يمكن الحديث عن النص الإلكتروني، لولا التطور الذي طرأ على مستوى النظرية والتعامل مع النصوص في الحقبة البنيوية، حيث اتسع مفهوم النّص ليشمل الكلمة والصورة الثابتة والمتحركة بالإضافة إلى الصوت، وبالتالي فإنّ هذا النص سوف يتيح للقارئ إمكانيات كبيرة للتفاعل والتعامل معه، وإنّه يتغير ويتطور بتطور الوسائط، لأنه يعطي إمكانيات مهمة للتحكم فيه وتوجيهه وفق متطلبات القارئ وتدخله فيه وفق ما يرافق حاجياته ورغباته، وهذا يستدعي خبرة أساسية في إجادة العمل على الحاسوب.

إنّ انتقال النّص من البيئة الورقية إلى البيئة الإلكترونية قد حمل معه الكثير من التحولات على صعيد التنظير حول مفهوم هذا النص الجديد، ممّا أدى إلى ظهور مصطلحات جديدة تعبّر عن حيثياته وتصوراته الجديدة، فالنّص الإلكتروني متشعب ومتعالق مع عدّة قضايا كنظرية التلقي والنقد وغير ذلك.

وينبغي الإشارة إلى أنّ أدباء الإنترنت قد أصبحوا قارئين لأنفسهم أكثر من القراءة للأدباء المعروفين المنجزين، فالمبدع الجديد يقيم تناصا وحوارية نصوصية مع زملائه المبدعين الجدد، ممّا يضفي على الحركة الأدبية حركية أوسع، بدلا من عامل توفر النصوص بسهولة للقراء وبطريقة بسيطة بعيدة عن التعقيد، ولهذا فإنّ الشكل الجديد للأدب قادر على المحافظة على وجوده وعطائه وأثره في حياة الإنسان[6].

إنّ الشبكة الإلكترونية قادرة على الوصول إلى أكبر قدر ممكن من المتلقين، لأنّ النص الإلكتروني لا يكلف متلقيه شيئا، مع ملاحظة ازدياد أعداد مستخدمي الإنترنت، بالإضافة إلى إبقاء النص على الشبكة، فالنص أصبح قابلا للتحول والحفظ والنّسخ وإعادة النشر مرارًا، ممّا يعني أن النّص أصبح في علاقة لا متناهية مع المحيط القرائي.

يحتل الحاسوب موقعا جوهريا في الإبداع التفاعلي بوجه عام، فهو أداة الإنتاج والتلقي في الوقت نفسه، وبدونه يستحيل التحدث عن هذا النوع من الإبداع، ومن خلال توظيف الحاسوب كوسيط للإنتاج والتلقي، يتبين لنا أن هذا التوظيف لم يؤد فقط إلى ظهور نمط إبداعي جديد فحسب، ولكنّه أدّى أيضا إلى بروز اختصاص جديد يتحدّد عبر اشتغاله بهذا النص الجديد، وهو ما يسمى "بالوسائط المتفاعلة"[7]، باعتبارها تتصل بالمجال الذي نؤطر ضمنه الإبداع أو التواصل بين المبدع والمتلقي والذي يتحقق باستخدام الحاسوب، وقد صار الأدب بمقتضاها يوظف الصورة والصوت إلى جانب اللّغة، ولهذا فقد جاءت الوسائط المتفاعلة لتعيد إلى الإبداع، وضمنه الأدب موقعه ضمن مختلف الوسائط، وإدماجه في هذا السياق في الوسائط وقد صارت تفاعلية، إذ لا يمكن لهذا التفاعل بين مختلف الأطراف (المبدع – النّص المترابط – المتلقي – الحاسوب) إلاّ أنّ يدفعنا إلى التساؤل عمّا أضافته هذه الوسائط المتفاعلة للإبداع والأدب وعمّا يمكن أن يجنيه المبدع والمتلقي من جراء تفاعلهما واستخدامهما لهذه الوسائط في التواصل؟

إنّ هذه الطريقة ترمي إلى تحقيق مقصد أساسي هو دفع كل من المبدع والمتلقي العربيين إلى تكوين فكرة وتحصيل معرفة أولى عن الإبداع التفاعلي وعن النص المترابط وعن الوسائط المتفاعلة، وإلى خوض غمار التجريب (تجريب مغامرة جديدة في الإبداع والتلقي) أي في التواصل.

إنّ الثورة المعلوماتية والوسائط المتفاعلة قد حوّلت العالم إلى قرية صغيرة، ولكن هذه القرية لا يمكن ولوج أسوارها بدون استيعاب واستثمار هذه التكنولوجيا المتطورة على النحو الأكمل، ليس على الصعيد الاقتصادي فحسب وإنّما على صعيد النص الأدبي أيضا[8].

والنّص المترابط مفهوم وضعه "تيودوره نيلسون" عام 1960م، ليشير إلى شكل للنص الإلكتروني، وتكنولوجيا المعلومات الجديدة بشكل جذري، وأسلوب النّشر[9] ولهذا عدّ الأدب التفاعلي أدبًا إلكترونيا، يعتمد على النشر الإلكتروني، وعلى تكنولوجيا المعلومات المعاصرة بكلّ ما تتيحه من إمكانيات الاتصال المتعددة.

إنّ الأدب التفاعلي لم يكن ليظهر لولا التطورات التي شهدتها وسائط الاتصال، وخاصة الحاسوب الإلكتروني في الفترة الأخيرة، وغالبًا ما يتضمن الكلام عن هذا الجنس الأدبي الجديد الإشارة إلى رواية "قصة الظهيرة" لميشيل جويس، التي ظهرت عام 1986م[10] بوصفها أوّل رواية تفاعلية، وقد فرض هذا النص الجديد شروطا جديدة للتلقي، فراح المنظرون يتحدثون عن قارئ المستقبل الجديد ومواصفاته، كإجادة التعامل مع الحاسوب الإلكتروني، ومعرفة لغته وامتلاك مهارات التصفح والبحث، والقدرة على الإبحار في عالم الإنترنت، والإلمام ببرامج الحاسوب الأساسية، وبمهارات بناء البريد الإلكتروني، وامتلاك عقلية تحليلية تركيبية، والحكم على قيمة ما يقدّم له[11]، وهذه الشروط هي شروط عامة للتلقي، وتنطبق على الأدب أيضا.

إنّ عملية التلقي المستقبلية هي إذن عملية تفاعلية، وإن قارئ المستقبل لن يكون بنفس الطواعية والتلقائية والاتكالية المعتادة في السابق، وهذا التصور الجديد تواجهه بعض المشكلات، فالأدب المطبوع ورقيا يعرف القارئ النشيط غير السلبي، وقد

نشأت نظريات القراءة والتلقي لمقاومة فكرة القارئ السلبي الخاضع للتلقين، فكانت فكرة الفاعلية هي المقابل الإيجابي للتصور السلبي القديم للقارئ في النظرية النقدية.

إنّ القارئ يظهر أثناء تلقي النّص بوصفه منتجا لا يقنع بكون النّص مجرد من القواعد الحاكمة، ويشترك بنشاطه هذا مع الأديب في لعبة الخيال، وإنّ جوهر فكرة تفاعل القارئ مع النص ليس جديدا على النظرية النقدية، وإنما الذي اختلف هو شكل التفاعل لا نوعه، وهذا يعني أنه ثمة نقاط مشتركة يمكن أن تمدنا من خلالها النظرية النقدية، التي باتت توصف بالتقليدية، لأنها ترتبط بالأدب المطبوع، الذي حلت نهايته بتصورات ومفاهيم تعين على فهم نشاط التفاعل الرقمي، بوصفه عملية اتصال تشمل النّص والقارئ اللذين يلح عليهما الخطاب النقدي الناشئ حول الأدب التفاعلي.

الهوامش:

1 – بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول... وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2001، ص 32.

2 – ينظر: م ن، ص ن.

3 – ينظر: م ن، ص ن.

4 – ينظر: ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط 1، 1997، ص 147.

5 – سعيد يقطين، من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، عرض وقراءة: عزت عمر، جريدة البيان، 2006/5/2م، العدد: 3، ص 8.

6 – ينظر: رامي أبو شهاب، النّص الرّقمي... تغيرات خطابات النقد والإبداع والتلقي،
http//www.al– watan.com/data/20080119/innercontent.asp ?val= culturel – 2.

7 – سعيد يقطين، من النص إلى النص المترابط، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب 2005.

8 – ينظر: عزت عمران، من النص إلى النص المترابط للناقد سعيد يقطين إلى جماليات الإبداع التفاعلي.
http//www.anaween.net/index.php ? action =show Details & id=332

9 – ينظر: أحمد أحمد عبد المقصود، الأدب التفاعلي والنظرية النقدية.
Http//www.jehat.com/jehaat/ar/aljeha ahkhamesa/ahmed abdlmagsood.htm.

10 – ينظر: المرجع نفسه.

11 – ينظر: المرجع نفسه.